المقتطف

الجزء السادس من المجلد التاسع والاربعين

١ دسمبر (كانون الاول) سنة ١٩١٦ — الموافق ٥ صفر سنة ١٣٣٥

متى تنتهي هذه الحرب

قال ثيوسيديدس المؤرخ اليوناني الحكيم « ان الحرب ابعد اعمال الناس عن التقدير ». وقال حكيم العرب زهير بن ابي سلمى من معلقته المشهورة

وما الحربُ الاّ ما علمتم وذقتمُ ... وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وتضرَ اذا ضرّيتموها فتُضرَمِ
فتعركُكم عرك الرحى بثفالها ... وتلقحْ كشافًا ثم تحملْ فتتئمِ
فتنتج لكم غِلمانَ اشأمَ كلهم ... كاحمر عادٍ ثم ترضعْ فتفطمِ

ولذلك مدح من يسعى في اصلاح ذات البين بين المتحاربين ولو تحمّل الديات بنفسه فقال

سعى ساعيا غيظ بن مرةَ بعدما ... تبزّلْنَ ما بين العشيرة بالدمِ
فاقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله ... رجال بنَوْهُ من قريش وجرهمِ
يمينًا لنِعْمَ السيدان وُجدتما ... على كل حالٍ من سحيل ومُبرَمِ
تداركتما عبسًا وذبيان بعدما ... تفانوا ودقّوا بينهم عطرَ منشمِ
وقد قلتما انْ ندرك السلم واسعًا ... بمالٍ ومعروف من الامر نسلمِ
فاصبحتما منها على خير موطنٍ ... بعيدَين فيها عن عقوق ومأثمِ
عظيمين في عليا معدٍ وغيرها ... ومَن يستبحْ كنزاً من المجد يعظمِ

فهل يقوم من الدول الباقية على الحياد دولتان تسعيان كما سعى رجلان من غيظ بن مرة وتتداركان الدول المتحاربة بعدما تفانت وتقولان لها ان ادراك السلم ولو بمال ومعروف هو السلامة والغُنم والساعي الى الصلح ينال كنزاً من المجد يعظم به اذا لم يحدث ذلك وجرت الحال على ما رأينا في هذا العام والذي قبلهُ ولم تنشأ عوامل جديدة ليست في الحسبان فقد

تمرّ السنة والسنتان والثلاث قبل نضج الحرب ازوارها . فان العوامل المادية التي ينتظران تطيل هذه الحرب كثيرة متباينة لا تقتصر على العدد والعدد بل تتناول ما عند الامم المتحاربة من المال ربما في صدر شعوبها من الصبر على المكاره . فاذا نفد المال او ذهب الصبر من احد الخصمين فلا بدّ له من الانحدار والاستسلام للقضاء . وقد يحدث ما ليس في الحسبان فتُحمَد السيوف بغتةً كما انشقت بغتةً ولكن يستحيل تقدير ذلك وتعيين زمانه ومكانه من الآن لان الحرب ابعد اخبار الناس عن التقدير كما قال نيوسيديدس

لما نشبت هذه الحرب سألنا السياسي المحنك لورد كرومر عن المدة التي تقيمها فقال انها لا تدوم اكثر من بضعة اشهر . وقد مضت الآن سنتان و بضعة اشهر ولم تزل حيث كنا . ولما قال لورد كتشنر انها تدوم ثلاث سنوات فاكثر حسب الناس انهُ قال ذلك على سبيل المبالغة . وقد مضت سنتان وجانب من الثالثة وما من دليل قاطع على انها تنتهي هذه السنة وقد لا تنتهي في السنة الرابعة

ولم تنشب حرب في عصر من العصور استعمل فيها الناس من العلم والمهارة ما استعملوهُ في هذه الحرب . فاستعانوا بكل العلوم الرياضية والطبيعية والكيماوية والطبية وبكل ما وصلوا اليهِ من المهارة الصناعية والمالية . فاتقنوا القواصات والطيارات والاسلحة على انواعها ونفذوا بالتقابل المتحصنة والسرائل النارية والغازات الخانقة . وذكروا الحصون الضخمة التي يقرب المثل بناءها . اصاروها هباءً منثوراً وابدلوها بالخنادق التي لا تنال الا بشابل تنعل بالارض نعل البراكين او بخنادق تحتها تسلك بها نسلاً . وجادوا بالاموال بسخاء ادهش كبار الماليين حتى ان ما كان ينفق على حرب كبيرة تدوم شهوراً ينفق الآن في يوم واحد

بدأت الحرب والتفوّق لالمانيا في الاسلحة وتدرّب الجنود وسرعة نقلهم من ميدان الى آخر حتى خُيّل انها ستقضي على فرنسا في شهر من الزمان ثم تعود وتقهر روسيا قبل الشتاء . ولكن حسابها اخطأ في معركة المارن وقام رجال الانكليز وتطوعوا للحرب بمئات الالوف ومن ثم صارت الحرب مجالاً واتسع نطاقها رويداً رويداً حتى عمّت قارة اوربا كلها واشتركت فيها اسيا وافريقية وجزائر البحر واضحت الحروب القديمة امامها كالاعيب الصبيان وانضمت تركيا و بلغاريا وايطاليا ورومانيا الى الدول المتحاربة

اذا امعنت نظرك في الحروب القديمة رأيت في كل حرب منها رجلاً فاق الاقران وامسك عنان تلك الحرب بيده فسيّرها كما شاء . وقد نشرت مجلة لندن صوراً ضخمة من الرجال العظام الذي كان لهم الشأن الاكبر في الحروب الاوربية السابقة وهم امير البحر

درايفك وامير البحر فشر والقائد لودن في انكلترا ونبوليون في فرنسا وملكي في ألمانيا . وابقت مكاناً فارغاً لمن يستحق ان يذكر اسمه معهم من قواد هذه الحرب كما ترى في الصورة التالية . ولكن زمامها ليس في يد رجل واحد بل هي خاضعة لمشيئة احد . وكأن القواد فيها مسيّرون لا مخيّرون وغاية ما يتوخونهُ ان يسيروا مع التيار ولا يغوصوا فيهِ حتى يتلمسهم وما منهم من يتوقع ان يضرب خصمهُ ضربة فاصلة في القريب العاجل

افتبقى الحال على هذا المنوال وتستمرُّ الحرب سجالاً سنين كثيرة . كلاَّ فقد زالت الاحلام التي كانت المانيا تمني نفسها بها وصارت ترضى من الغنيمة بالاياب وتخرج من هذه المعمعة لا عليها ولا لها . وجعلت تنادي باعلى صوتها انها دُفعت الى الحرب مُكرَهة وتود ان يقوم مَن يخرجها منها والحلفاء رأوا الآن ان الحصر البحري لم يمت الالمان جوعاً ولا حرمهم من مواد الحرب وانهم على كثرة مَن قُتل منهم ومن جرح واسر لم يزل جيشهم كبيراً جداً ولم يزالوا قادرين على الدفاع وعلى الهجوم ايضاً ولم تنفد حيلتهم الواسعة في الاختراع والاستنباط وقد استقدموا العدد العديد من الاسرى في الصناعة والزراعة لكي يتفرغ رجالهم للحرب والصدام . والتفت الى ذلك مكاتب في جريدة التيمس فقال ما خلاصتهُ

« ان الالمان لجأوا الى الدفاع بعد الهجوم في كل الميادين تقريباً والحلفاء يفوقونهم في كل شيء عدداً وعُدداً ما عدا القوة العقلية وفي يدهم زمام البحار فهم يضيقون على الالمان تضييقاً لا يضعفهُ علم ولا تقوى على احتمالهِ حمية وطنية مهما عظمت . وما من دولة محايدة يؤبَه لها الاَّ وهي تميل الانضمام الينا على الانضمام اليهم . وستكون الغلبة لنا حتماً ولكنها قد لا تزال بعيدة فان المانيا لم تقهر حتى الآن . فجبت بوارجها القتال قبل ان يقضي عليها . ثم أُقفلت اسواق المسكونة في وجهها وأُرصدت ابواب البحار امام سفائنها وقد حدث مثل ذلك لنبوليون بونابرت في معركة الطرف الاغر ولكنهُ بقي في اوج مجدهِ وبقيت ملوك الارض تخطب وده وتسابق الى نيل رضاهُ

« والانسان يعيش في البر لا في البحر والدولة البرية التي تتسلط على نصف اوربا وتمتد سلطتها من البلطيك الى الادرياتيك لا يمكن اذلالها بقوة بحرية لانها لا تزال تستورد ما تحتاج اليهِ من البلدان الواسعة التي تحت سطوتها

« ولا شائبة في ان ايصاد البحار دون المانيا قد اضرَّ بها كثيراً ولكن الضربة القاضية لا تكون الاَّ في البر . هذا ما حدث في الماضي وما سيحدث في المستقبل (وقد مثّلت ذلك مجلة لندن بصورة وقف فيها الجنرال جوفر الفرنسوي امام امير البحر جاليكو الانكليزي

وقال نعم ما فعلت ولكن الضربة القاضية تكون في البر لا في البحر كما ترى في الصورة التالية)

« ولقد اخطأ في القاء اسلحته على قوتنا البحرية واهمال قوتنا البرية فكان كالذي امام الذئاب لما ذهبت فضربة المانيا في فرنسا لانها اعتمدت الراحة والرفاهة فاسلمتها الى انفسنا والى ادرياكلها باهمالها قوتها البرية

« وسبيلنا الآن ان نعلم ان قوة المانيا الحربية لم تضعف حتى الآن ولا دليل على انها لا تستطيع مواصلة الحرب وامداد جنودها بالرجال والسلاح سنة اخرى او سنتين

« من المحتمل ان قيادة جيوش الالمان جعلت منذ الربيع الماضي تحني عدد قتلاهم وجرحاهم ولا تذكر الا القليل منه حالما رأت انها تعنى بذلك وتبني عليه احكامها . ولها غرض آخر اهم وهو ان لا يعلم الشعب الالماني ما حل برجالها . ومع ذلك فانها لم ترسل الى ميدان القتال حتى الآن الا القليل من مجندي سنة ١٩١٧ ولم ترسل احداً من مجندي سنة ١٩١٨ . وهي تستطيع ان تجند كل سنة نحو نصف مليون من الشبان . وكثيرون من الجرحى يشفون ويعودون الى ميادين القتال . وقد يكون عندها الآن مليونان من الرجال المستعدين لحمل السلاح وانجاد الجنود المقاتلة . ولا جدال في انها خسرت في والنمسا خسارة فادحة في الصيف الماضي ولكن خسارتهما هذه لا تستلزم ان يطرحا سلاحهما حالاً و يطلبا الصلح فاهيك عن ان التزامهما خطة الدفاع تقلل خسارتهما من الرجال وقد اجل الحرب كثيراً

« فلا ينبغي لنا ان نتوانى بل يجب علينا ان نزيد همة واقداماً ونوالي الهجوم نحن وحلفاؤنا ونكثر من سبك المدافع والقنابل واعداد الجنود ونستعين بكل رجال الامبراطورية البريطانية . وما دامت حكومتنا قد اقرت التجنيد الجبري ووزعت ادارة الاعمال على الاكفاء من الرجال فلا يهمنا بعد الآن من يدخل الوزارة او من يخرج منها

« وستنتهي هذه الحرب حينما تدرك المانيا انها تخسر كثيراً باطالتها ولا تستفيد شيئاً منها . ولكن ما من احد يعلم متى يكون ذلك . من المرجح ان اولي الامر في المانيا علموا الآن هذه الحقيقة ولكن يصعب عليهم ان يجاهروا بها قبلما تدور الدائرة على قوادهم في معركة كبيرة فاصلة لاسيما وان الشعب الالماني قد استشوى وأقنع ان الفوز في يدهم فيصعب عليه ان يصدق الآن ما يناقض ذلك »

واستطرد الكاتب الى ما يجب على الامة الانكليزية فعله بعد ان يعقد النصر الحلفاء فقال

« ان الحرب ستنتهي يوماً ما فكيف يكون حالنا حينئذٍ . اذا اعتبرنا قوانا البرية والبحرية وخيرات بلادنا فسنصير اعظم دولة حربية في المسكونة وتكون معتمد حلفائنا وتقبلك ما ساعدتهُ

الجنرال جوفر يقول لامير البحر جالیکو ما قلت ولكن الضربة القاضية تكون في البر لا في البحر

مقتطف من عدد ديسمبر ١٩١٦

امير البحر ناسن　　ناوليون بونابرت　　امير البحر درايك

القائد ملنكي　　القائد ولجتون

مليون ميل مربع من مستعمرات الانكليز ويكون عندهُ جيش محنك من الجنود والضباط يعدُّ بالملايين ويزيد تفوُّق البحري حتماً كان قبل ان نبدأ بالحرب وتتفق الامم كلها ان امبراطوريتنا مرتبطة بعضها ببعض بمراحل لا تنفصم وشعوبها لا تأبى وفاءها خليق بماضيها المجيد

« ولقد كان ضعفنا العسكري شوكة في جنب جنودنا في السنوات الاخيرة وهو من اكبر الاسباب لنشوب هذه الحرب الا ان ذلك قد مضى وانقضى . لكننا قد قصَّرنا كل ما اكتسبناهُ الآن اذا قامت فينا وزارة تطلب ان نطيع سيرفنا سكتاً ورماحنا متأجل قبل ان يحين الزمان الصالح لذلك . فيجب علينا ان نكون على حذر مدة خمسين سنة الى ان تزول رزايا هذه الحرب وما اثرتهُ في النفوس ويعود الامن والسلام الى نصابهما

« يجب علينا ان نحذر الغرور كما نحذر الهول لئلاَّ نضيع ثمار الظفر فقد أعطينا زعامة حقاً فصارت زعامة اوربا لنا بحق مكتسب فلا ينبغي لنا ان نحل محل المانيا فتكون قوة حربية مستبدة مثلها لاننا اصحاب البوارج والرجال والاموال وتوخي التفوق الحربي على غيرنا بل يجب ان يكون غرضنا النفع العام وخدمة نوع الانسان . اما البحر فيجب ان يبقى لنا التفوق فيهِ واما البر فيجب ان يكون عندنا من القوة ما يكفي لغاية ثغورنا وبلداننا معاً فاختلفت قصار يقد الزمان . ولا نخدع انفسنا بان القوة البحرية كافية وحدها كما فعلنا فيما مضى

« يجب ان نمرن شبابنا كلهم على استعمال السلاح لا لكي يضرموا نار الحرب به بل لكي يتموا اضطرامها ويحموا كل املاكنا ومستعمراتنا ويحفظوا تاريخ اسلافهم المجيد

« والفوز في الحروب والتغلُّب على المكاره مغروسان في نفوسنا حتى ان جنودنا الذين دارت الدائرة عليهم في اول الحرب واضطروا ان يعودوا القهقرى امام العدو لم يكن يخطر لهم ان يفكروا او يتكلموا الاَّ بان الفوز سيكون لهم اخيراً . وقد دامت هذه العزائم كل مدة الحرب وستبقى اشرف ميراث نورثهُ لشريعتنا من بعدنا »

هذا ولم نكد ننتهي من كتابة هذه السطور حتى طيَّر الينا البرق ان المانيا عزمت أن تجعل بلادها كلها معملاً للاسلحة والذخائر الحربية او ان تحسب البلاد كلها محلاً تجاريّاً كبيراً وتستخدم كل ما في بلادها من الايادي العاملة ومعدات العمل لخدمة الجيش وان لا تكتفي باستخدام الرجال والاسرى بل تستخدم النساء ايضاً ويقال انها عزمت على تجنيدهنَّ ايضاً . وان انكلترا قررت انشاء ادارة للتموين برآسة رجل مطلق التصرُّف يحق لهُ ان يرغم الناس على الاقتصاد وانها حظرت على السكان اتلاف المواد الغذائية واستعمال السكَّر في الكماليات وطحن الدقيق على الاسلوب الذي يزيل منهُ المادة السمراء فتقل تغذيته